على عهد الامير

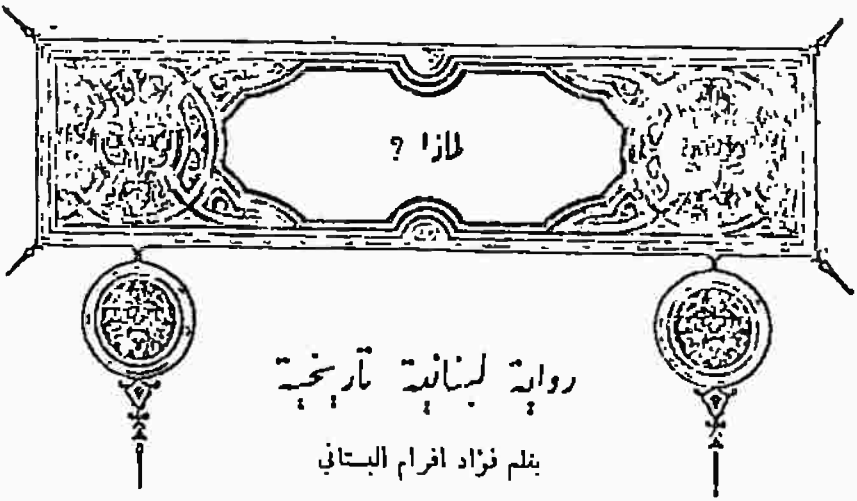

الفصل الخامس

عند الجزار

كبيرُ الأنف بزّاقه ، بارز الحاجبين وقد غارت تحتهما عينان واسعتان تارةً يغشيهما حجابٌ شفّاف من الماء الصافي يدفع اشدّ الناس حذرًا الى الثقة والاطمئنان ، وطورًا ينعشهما بريقٌ غريب ما كانت السنون لتخفّف من جاذبيته ونفوذه ؛ عريض الجبين وقد زاده صلع القرنين مساحةً وظهورًا ؛ اشعث الشعر مسترسله ، من جهة الصدغين على لحية متفرّقه عبث الشيب باحد طرفيها ، وعبثت اناملٌ صاحبها بالطرف الآخر تنتف من شعراته آن التفكير فبدت ولا شكل لها يُعرف فيوصف.

هكذا ظهر الجزّار مترتّباً في عرش نقشت قواعده ، وعلته طنفسة حمراء مذهّبة الاطراف ، اذ دخل غانم ديوان عكا يصحبه وفد الامير بشير ، مقدّماً الطاعة والخضوع « للباشا ».

ولم يكن غانم شاهد عجلاً للامراء بعد ، فذهل لدى تلك المظاهر الفخمة ، وأخذ بما رأى من اساليب العظمة التي تكتنف مولى عكا ، وحار

لبه امام الابواب العديدة تحيطها الحرّاس المختلفو الأجناس والاثواب ، والماشي الضيقة تدور حولها الجنود بالسلاح الكامل ، والتي يراها كل من شاء مقابلة الجزّار ، فيقع الرعب في فؤاده قبل ان يصل . كان على رتاج القلعة ، حارسان من الارناؤوط بايديهما الكشيف ، وسيفيهما المعقّفين . ووراءهما فرقة من الدالاتية وقد اطلقوا شواربهم وارسلوا شعورهم ولحاهم ، فبدوا بقواويقهم المخروطة وثيابهم القريبة الالوان ، واحذيتهم الطويلة الاظفار القابضة على نُصُب الحناجر المرصعة كأفظع ما يكون من مظاهر الشراسة والوحشية .

اجتاز غانم مع رجاله ذاك المضيق الى المشور الداخلي فاذا جدرانه مغشاة بانواع الاسلحة المختلفة ، واذا في صدره امام الباب المؤدّي الى الديوان ، فرقة من السودان قُطس الانوف ، مُلس الوجوه الّا بعض الوجنات المخطّطة بندوب مختلفة الطول والاتجاه ، بيض الاسنان ، مُنَمْلَلو الشعور وقد شكّوا على اطرافها كثيرًا من ريش الطيور بعد ان لوّنوها بالاصباغ القوية ؛ تُراة الصدور لقوا على اوساطهم زنانير عريضة من القماش الأحمر القاني ، تمنطقوا فوقها بطبنجات مزدوجة ، وحملوا بايديهم رماحاً لدنة تلمع الاسنة في اعلاها لمعاناً تزيد بريقه عتمة ذاك المكان .

وكان في صدر الديوان كشك قليل الارتفاع نُصب في وسطه عرش المولى على قوائم مزخرفة انتهت باربعة من رؤوس الاسود . وعلى جانبي الكشك مقاعد مختلفة ارتفاعاً وزينةً جلس عليها امناء السرّ ، والمدراء والقوّاد والكتّاب . ووقف في الزوايا اربعة من الجنود الطوال وقد غطّت اجسادهم وقبعاتهم الزخارف الذهبية تدلّت منها الشراريب اللذاعة ، وحملوا رافعين على اوساطهم ألوية البلشا . واذا اضفنا الى جانب المدخل صفّين من الجنود بالسلاح الشاكّ ، رأينا ما صار به غانم اذ اقتيد امام الجزّار . فتقدّم ببطء حانياً رأسه ، ووراءه اعضاء الوفد اللبناني ، حتى وصل ازاء العرش فوقف جامدًا لا يجسر على رفع بصره .

وكان احد الكتّاب قد استقبل غانماً ، واستأذن له بالدخول ، بعد ان اخذ منه رسالة الامير وفيها يظهر خضوعه للجزّار ، ويقدّم له المئة والخمسين

الف غرش صحبة غانم وهو احدى الرهينتين ؛ ويعده بارسال الشيخ بشير جنبلاط مع المال الباقي في اقرب وقت . ثم يهديه اربعة من جياد الخيل العربية . فتقدّم اذ ذاك الكاتب بالرسالة على صحفة من الذهب الوهّاج . فقضّها الباشا وناولها الى احد امناء سرّه ، فقرأ مضمونها .

عند ذاك التفت الجزّار الى غانم متكلّفاً الابتسام . ثم حكّ عثنونه ، ولعا بطرف لحيته قليلاً ، وقال بتمهّل .

— الامير بشير ولدنا ! ووفده مكرّم ! وهديّته مقبولة !

فاومأ احد القوّاد الى غانم ، فتقدّم وقبّل يد الجزّار . فقرّبه هذا واجلسه الى يساره ثم اقبل عليه قليلاً فسأله عن حال الأمير وحزبه وتركه منصرفاً الى امنائه مستفهماً عن احوال البلاد .

وكأن الظروف شاءت ان تُطلع غانم على مثال من عدالة الجزار ، ونموذج على أحكامه . فتقدم اليه كبير الكتاب وقال :

— اتتنا شكاية ، يا مولاي ، من شيخ نصراني على ابنه . . .

فقاطعه الباشا بحدّة :

— ومضمونها ؟ ؟ ؟

— يقول الشيخ ، يا مولاي ، ان له بيتاً مؤلفاً من قبو وعلّية . وقد كان يسكن العلّية من عهد بعيد تاركاً القبو لابنه . حتى كان الشهر الماضي ، فاراد ابنه الزواج وتقدّم راجياً منه ان يعيره العلّية ليُقيم فيها حفلة العرس . . .

فعلت شفتي الجزّار ابتسامة خفيّة ، حادقت مثالها على جميع الشفاه . وكان الكلّ قد اعجبوا بهذه القضيّة الغريبة . ثم تابع الكاتب .

— فرضي الاب ، واحتفل الابن بزواجه في العلّية .

— ومِمَّ يشكو الاب ؟

— يشكو ، يا مولاي ، من أنّ ابنه لا يزال في العلّيـة . وها قد مرّ اكثر من شهر على قرانه ، وكان كلما خاطبة الاب بشأن الغرفة يسوّفـه حتى اول من امس فقال له بكل صراحة انه لن يتنازل عن علّيته .

فتململ الجزّار في مقعده ، وقال بحدّة !

— وقاحة ! واين الابن ؟

— هو قيد التوقيف ، يا مولاي !

— ليُحضر !

وما كان كرجع النفس حتى اقتيد المتّهم مقيّدًا ، فتقدّم ببطء وقد اصطكّت ركبتاه ، وصبغ الخوف صدغيه بالاصفرار . واشتبكت عليه انظار الجميع حائرين في ماذا سيكون حكم الجزّار في تلك القضية الغريبة .

ولما وصل الى وسط الديوان ، رفع الجزار رأسه فصوّب اليه بصره فقال:

— انت المتّهم ؟

فارتجف الشابّ ، وحنى رأسه ، وسكت .

— ما هو دينك؟

فتلا ذلك سكوت رهيب تململ الجميع من وقعه ، وخاف غانم ان تكون نصرانية الشابّ سبباً لقتله . امّا المتّهم فالتفت الى الجزّار بعينين ملؤهما الرعبة والرجاء وقال بصوت خافت :

— نصراني يا مولاي !

— نصراني ؟ اذًا فارسم اشارة الصليب !

فبلغ الاستغراب من الحاضرين اشدّه ولم ينتبهوا الّا ليد الشاب ترتفع مرتجفة الى جبهته ثم تهبط الى صدره ... وصوته يتهدّج قائلًا :

— باسم الآب و..الابن . . .

— الا ترى يا مجنون ان الاب فوق والابن تحت ؟ اذهب حالًا فارجع اباك الى عليته فوقك ، وارجع انت الى تحت حيث يجب ان يكون الابن ..

وما اخرج الشاب المسكين وهو لا يكاد يصدّق بالنجاة من مخالب ذاك القاضي ، حتى قهقه الجزّار عالياً فجاوبت اصداء ضحكته بين الحاضرين . ثم اقبل على غانم فقال بكل عجب :

— كيف رأيت ؟

فتبسم غانم واجاب :

— رأيكم اعلى ، يا مولاي!

ثم اشار المولى الى علي آغا احد الامناء ان يُطلع غانماً وسائر اعضاء الوفد على مدينة عكاً ، وان يبالغ في اكرامهم . فخرجوا معه وكلهم مأخوذون بمشهد ذاك الرجل الغريب الأطوار العجيب المآتي حتى لا يكاد الانسان ان يجد له تحديداً

* * *

ساروا نحو الساعتين في شوارع عكاً الضيقة ، وعلي آغا يُطلعهم على ما فيها من المخازن والمستودعات . وقد ادخلهم الى خانات التجار الواسعة شارحاً لهم كيف اصبحت عكاً اعظم مدينة تجارية على الشاطئ فتقدمت بيروت في كل شيء حتى انه لم يبقَ اذ ذاك في بيروت من السكان سوى ستة آلاف . ثم قادهم الى مرفأ المدينة فأراهم اسطول الباشا المؤلف من اربعة مراكب احدها كبير مهمّ ، واثنان متوسطان ، والآخر صغير خفيف قال لهم علي آغا ان تجارة الامير غنوه من اهالي مالطة .

ثم عاد بهم الى الاسوار فداروا حولها وهو يخبّر لهم عرض جدرانها مشيراً الى ضخامة ركائزها ، وارتفاع ابراجها ، ومنعة بوّاباتها . حتى ذهلوا جميعاً . فقال غانم :

— ومن بنى هذه الاسوار ؟ وهل هو مولانا الباشا ؟

— لا ! بل ان بناءها قديم جداً يرقى الى عهد الكفار من الفرنجة الذين أتوا منذ مئات السنين فاحتلّوا هذه البلاد . بنوها كي تدفع عنهم هجمات المؤمنين . وها ان الله ردّها الى المؤمنين .

فجعل اللبنانيون يعجبون بتلك الاركان الضخمة ، والمشارف الشاهقة . بينما كان علي آغا يُتابع كلامه :

— ولكن لا يسبق الى ذهنكم ان هذه الاسوار لا تزال من عهد كفّار الفرنجة على هذه الحالة . لا ! فان مولانا الباشا رمّم الكثير من ابراجها ، وشيّد بعض اركانها . واحتفر هذا الخندق الفسيح الذي يفصل بينها وبين الهاجمين من البرّ . وقد رأى بحكمته ان يسرع في العمل ففرض على كل قرية من قرى الجوار ان تأتي برجالها فتشتغل ثلاثة ايام في الاسبوع . حتى قويّ البنيان ،

واعيدت الاسوار الى سالف منعتها ، فاصبحت عكاً تتطاول على كل طامع وتهزأ بكل محارب.

فقال غانم مستغرباً :

— وما القصد من كل هذه الاتعاب ؟ ومن يمكنه محاربة مولانا الباشا ؟ بل من يمكنه التفكير في محاصرته ضمن هذه الأسوار ؟

فابتسم علي آغا وقال :

— انك لا تزال شاباً بعد ، فلم تختبر تصاريف الدهر ، وانقلابات الايام. من يدري ما يقوده الينا الزمان عما لعله يُظهر منعة هذه الأسوار . وما ادراك ما سيكون لمنعتها من التأثير في مستقبل الأحوال . قد تنفع المولى في اشد ازماته ، وقد تغير مجرى كثير من المقاصد والمطامح ...

وبعد ان تفقدوا جميع الآثار في ذاك البلد التاريخي ، عادوا الى الديوان ، فأمر الباشا بانزالهم في جانح خاص من قصره ، وبان يُهتم بهم ويُبالغ في إكرامهم .

* * *

وبعد ثلاثة ايام استأذن اعضاء الوفد إلّا غانماً ، في الرجوع الى دير القمر. فاذن لهم الجزّار بعد ان خلع عليهم ، واعطاهم هدية للامير بشير مع علامات الرضى.

فودّعوا غانماً . وانصرفوا وكلهم يتحدّث عن عظمة عكا ، ومنعتها واليها

وكان غانم قد سلّم الى خادمه ثلاثة تحارير : واحداً للامير بشير يذكر فيه جميع ما شعر به لدى مقابلة الجزّار ، والثاني لجدّه الشيخ يخبره بانه غير حزين في عكا ويطمئنه الى صحته واحواله . والثالث الى عمه الامير جهجاه يقبّل به يديه ويدي امرأة عمه ، ويسلّم على بدور...

(لها بقية)